قصة

طرق ساعي البريد بسبابته على الباب. صرخ فارس من الداخل:

-من الطارق؟؟

-ساعي البريد.

قطب فارس جبينه "ساعي البريد؟؟" تساءل، "متى كان يطرق أصلًا؟" تقدم فارس متعجبًا وفتح الباب بسرعة، وإن تركه لكان ارتطم وانكسر. كان ساعي البريد بلباسٍ أسودٍ وخطوط صفراء، كان مطرقًا رأسه إلى الأرض، يوجه رسالة إلى صاحبها، كانت رسالة بغلاف أسود. تساءل فارس في نفسه "ماذاا؟" انتشلها من يده، ونظر إليها للحظة، ثم ما إن رفع رأسه ليتساءل حتى لم يجد أحدًا.

-أين اختفى!!

وعاد يحملق بالرسالة. كان الغلاف ملون بالأسود. قرأ فارس ما كُتب عليه، بخطٍ أحمر بلون الدم "لا تفشي السر" فتفشى الأدرينالين في رأسه. شق المغلف، وأخرج الرسالة منه، وفردها بيديه، حتى صارت مفتوحة ليقرأها، وانصب بصره في سطر واحد في منتصفها، والعبارة مكتوبة بلون الفضة، همس:

-فارس الغبار 1986.09.06 – 2027.03.21

وامتلكته نوبة من الضحك الهيستيري، وأطلق قهقهاته في سقف الغرفة، وكرر صارخًا:

-2027.03.21

ومن يكون بحق الإله!! قال وهو ما يزال يصدر الشخير في ضحكه:

-كذب المنجمون ولو صدقوا.

وفكر "من عساه يا تُرى؟!" وتذكر أنه نسي الباب مفتوحًا، وبينما أراد أن يغلقه، رمى نظرة في الرواق، والتمس لفتة أخيرة عله يجد ساعي البريد الأبله، وهزّ رأسه بينما هو منطلقٌ في بهو البناء في الدور الخامس وقال:

-تسلم شو مهضوم.

ثم أوصد الباب بلطف، وكان يبتسم وهو يحدق في الرسالة الغريبة الأطوار، وتساءل بصوتٍ مرتفع:

-ومن أين له يا ترى أن يقتنص تاريخ موتي...ينقص فقط أن يكتب الساعة بالتحديد.

وكان قد شغله الأمر بمقدار سخافته وبساطته، وقرر أن يرفع مكالمة لوالدته، فعساها أن ترى في ذلك شأنًا لم يراه هو، ونقر رقمها على هاتفه، وبعدما رن قليلًا تردد إليه صوت أمه:

-فارس حبيبي.

-أمي!

-كيف حالُك؟

-لن تصدقي يا أمي.

-ماذا؟؟ أبك حاجةٌ أو أصابك مكروهٌ يا عزيزي!

-كلا...كلا...أمر بسيط، لا تقلقي!

-فأفصح عنه إذًا.

-كما قلت أمر بسيط...مجرد رسالة.

-رسالة تهديد؟؟؟؟!!!

-أمي!!! لم أنهي كلامي بعد.

-عفوًا بُني. أقلقتني...ما الخطب؟ تفضل.

-مذ دقائق وصلتني رسالة، بمغلف أسود، كُتب عليها تاريخ ميلادي وتاريخ...

-وتاريخ ماذا؟

-تاريخ موتي...

وانقطع الصوت من الجهة الأخرى، وما هي ثوانٍ حتى تساءل فارس:

-أمي؟؟

-نعم حبيبي.

-ألم تسمعي ما قلت؟

-بلا...

-إذًا ما رأيك؟

-أعوذ بالله يا أمي، لا تصدق تلك الخُرافات، كانت تأتينا رسائل أنا وأباك حينما كنا متزوجين حديثًا بالآلاف، وكان منها ما يشبه التهديد، تعلم موقع والدك في الشرطة، والمنصب الذي يترأسه، وكنت لا أنام ليالٍ وأنا أفكر في المقصد منها، ومرت الأيام يا بُني، ولم يتحقق شيء واحد، لا تخاف...

فقاطعها فارس:

-لكنني لم أقل أنا خائف يا أمي.

ولكن تابعت كأنما لم تسمع كلامه:

-لا عليك بُني، غدًا ستغدو مشهورًا في المستقبل، ستستقبل مئات الرسائل، غض بصر كريمي، لا تعلم...قد تصلك رسائل من المعجبات.

وشعر بصوتها يتهدج قليلًا، ووعى حينها أن السفينة تُبحر في الاتجاه الآخر، واحتسب أن النقاش مجددًا في الأمر سيقلقها، كما سيزيد حدسها في خوفه، ولأي سببٍ فاتحها، ولكنها غريزة الأطفال، واختصر في الكلام بعدما انقلب تمامًا إلى فوضى من الأحاديث المعتادة المتكررة الروتينية، إلى أن انقطع الخط أخيرًا بأمر من المجهول.

جلس فارس إلى فراشه العريض المهذّب، ودفع نفسه إلى الأمام وقد انقطعت سلسلة أفكاره إلا من تاريخ مكتوب بخط مجهول عساه يكون ولد مشاكس أو صديق معتوه، وفكر مليًا علّه يدركه، أو ربما يلتمس خيطًا رفيعًا يعينه، أو أمرًا بسيطًا يوحى إليه، فيرفع عنه شاغله. مكُث قرابة ساعة أو ساعتين، وكان قد ذرع الحديقة المجاورة ذهابًا وإيابًا، وهو مطرقٌ قاطبٌ، كأنما فُصل عن الواقع واحتُبس في الخيال، وكثيرًا ما تمتم أو همس أو بَسبَسَ، فخاله الناس مجنون أو مضطرب فغيروا طريقهم، وبينما كان في كبِد الحديقة، وإذ به يحلق بنظره صوب العمارات المجاورة فيتعلق محياه في ساعي البريد، وخال أن عينيه تخاتلانه أو تشابهانه بشخص آخر من شدة تفكيره به، ولكنه أمعن جيدًا، وعندما انقطع الشك من اليقين صرخ فارس:

-يا ابن الملعونة!!

وكان صوته مجلجل. ما إن وصل ساعي البريد، حتى قفز كالكلب من الرعب، وعدا في الاتجاه الآخر على رؤوس أصابعه. تبعه فارس فبديا للناس قطٌ يجري بأثر فأر، وكان ساعي البريد كأنما دُبغ بحُقنة أدرينالين، وفارس بإبرة منوم،

وسرعان ما فرّ ساعي البريد من براثن الموت المحدق، وكان آخر ما تبينه فارس منه قبعته السوداء وحرفها إلى الخلف، وتوقف فارس وركع على ركبتيه وهو يلهث:

-ه...ه...ه.

فتقدم إليه رجلٌ كان ينزل من سلم عمارة مر بها ساعي البريد في عدوه، وسأله:

-السيد على ما يُرام؟

فدفعه فارس بذراعه وكان ما يزال يلتقط أنفاسه، وتلعثم باستياء:

-وتسألني الآن ما خطبي، بعد أن مرّ بك ابن الملعونة ولم تحرك ساكنًا...أنتم كالشرطة، تصلون دائمًا في الأوقات الصحيحة!

-عفوًا يا استاذ.

فرد فارس بعفوية:

-لا عفوًا ولا بطيخ...حل عن طي...ي!

-ليك وين وصلنا!!

-توصل لآخر جهنم ان شاء الله وتحرقك نار أبليس، قوم حل عن قفاي، خلصني من سؤالك يلي ماله طعمه.

وتركه الغريب مستاءً من العطف الذي قدمه، وشعر فارس بينما هو عائد إلى المنزل بالدوار والإعياء، وألم في الرأس، وكان يشعر بغصّة وخنقة في الصدر، مثل عصفور محبوس في قفص، وزاولته الصورة عدة مرات في يومه، وكان يفكر بينما يقول:

-أنا لستُ عصفورًا في قفص فحسب، أنا ستيتية في قفص.

وكان يؤلمه صدره، بل ويشعر بضغطٍ على أضلاعه، فعزم أن يرتاد الحكيم في الصباح، وتذكر أنه مرّ بواحدٍ في طريق العودة، وفكّر في مقولة أحد أصدقاءه كان طبيبًا فيما مضى بالمدينة التي يقطن بها:

-تفاحة باليوم تُبعد الطبيب عنك.

وفكّر بصوتٍ خفيض:

-واللّه لو باكل كل يوم عشر تفاحات لحتى يصير موعد موتي، ما بيتأخر ثانية واحدة، 2027.03.21، اي واللّه لو جن مو هيك.

وخلد إلى نومٍ متقطع متشكك، وكانت تراوده -في أوقات ارتياده الحمام- صورة العصفور المحبوس، وعلقت الصورة بمخيلته كأنما علكة مهترئة بسروال نظيف مهندم، ونام فارس نومًا غليظًا مفجعًا لا يطيق ميعاد خلاصه، ودفن في صدره الخوف والقلق والمشاكل، وتردد إليه صوت احتسبه طرطقة، وفكر فارس وهو ملتقي على فراشه: "في منتصف الليل؟!!" وكان صوتٌ مألوف، فأدركه بعد لحظات، وانتقل إلى الشباك ليقلي نظرة على محافظ البريد الحديدية، ولكن أحدًا لم يكن هناك ليعبث بها. قرر فارس أن يهبط السلالم في هذا الوقت ويتفقد بريده، وكان يفكر في "البريد الأسود" الذي تلقاه صباحًا، وهمس:

-قد يكون بريد آخر من نفس النوع.

وفتح صندوق البريد الخاص به فلم يجد شيئًا إلا بعض الدعايات الورقية والإعلانات التي تنتقل من صناديق البريد إلا سلل المهملات، وكان يضيق ذرعًا من الليل الذي لم يمضي على شوطه شيء يُذكر، فبدأ يتفحص الإعلانات الملونة والبوسترات المصممة بجودة طابعات رديئة جدًا، وتعلقت عينيه على دعوة مجانية للمعاينة في عيادة طبية أُنشئت حديثًا، وقال:

-يا محظوظ يا ابن المحظوظة، المعاينة الأولى ببلاش! عز الطلب!

وكاد يقفز من الفرح، ثم توقف حتى لا يخاله الناس مجنون أو مثقل من المشروب وقال:

-ومن يا تُرى يتفقد صندوق البريد في هذه الساعة؟!

ولكن الخبر أزاح عنه خيبته ويأسه وقنطه، وصعد مزهوًا يدندن كلمات حفظها من أمه أو أخواته عن ظهر قلب:

-أخاصمك آه...أسيبك لاه...لاه...

وأزهرت الدنيا في وجه فارس بعدما ذبُلت وقحطت، ونام أخيرًا نومًا هنيئًا، وفي اليوم التالي عزم على ارتياد الطبيب، وكان يهمس بين الحين والآخر:

-يا رب ما يطلع شيء خطير...يا رب ما يطلع شيء خطير.

وبدل ثيابه مرات والأفكار تراوده "ما الإجراءات وماذا عساه يقول، مريض أم متعب أم منهك أم يفصح عن الحقيقة" وتخيّل نفسه أمام الحكيم، والحكيم يمسك خواصره حتى لا تفرط وهو يقول:

-هاهاها...بريد أسود...موعد ماذا تقول؟؟؟ أحقًا تتكلم؟ هههه

ومضت ساعة وهو يذرع الغرفة ذهابًا مجيئًا، من دون اي تقدمات أو تطورات، ومازال يردتي سروال و فانيلا داخلية، حتى قرر في النهاية:

-ألم رأس...سأقول وجع في الرأس...كيف له أن يكتشف؟!

وعلا أن الفكرة راقت له، إلا أن فارس ظلّ في حيرة وقلق، وانتبه إلى أصابعه المعصورة في يده، وأسنانه المصطكة كسحّاب المعطف، ولجأ إلى اليوغا علّ ضغطه ينحسر قليلًا ويتراجع، وكانت النبضات مسموعة في طبلات أذنه،

وكثيرًا ما بلع ريقه أو تمطط أو طقطق رقبته، حتى به في النهاية يستجمع شتات خوفه ويرميه في زاوية من زوايا ذاكرته، ويلملم نفسه، ويخرج.

وكان المستوصف أقرب لفارس من صعود السلالم لزيارة جار أو قريب، وكانت لافتته الزرقاء تشع في منتصف النهار، والجدران ناصعة لا تميز فيها نقطة سوداء أو شحار رمادي، وكانت القابلات زهرات متفتحات، بالجمال وبالمعاملة، والزجاج نظيف شفاف حتى تكاد تخاله هواء أو فراغ فتصطدم به كألعاب الأطفال. استُقبل فارس كأنما يدخل حفل زفاف أو يتوّج على المنصة، وكانت العيادة كمنتجع صيفي على شاطئ البحر، وجلس فارس في غرفة الانتظار ليملي استمارة التعريف، وكانت المجالس الأخرى محجوزة بالأكمل، ولحظ فارس الوجوم على وجوه الناس، والقلق المُحدق بهم، والذّعر المرسوم على خواتيم عيونهم، وهمس:

-اللّه يستر.

وكانت مدة الانتظار مُتعبة، والساعة في عرض الحائط مُرعبة، تدق كالقدر المستعجل، وأصاب فارس الضيق، وكثيرًا ما كان يحرك ساقه أو ينظر في ساعة يده، وكانت نظرات المرضى الآخرين لا تبشر بالخير، وكأنهم في ميعاد مع فحص أو تسميع شفهي، وكان فارس يرمي بصره في الأرضية، لا يفك عن التفكير أو تكرار بعض المشاهد الحزينة السابقة التي مرت به، حتى إذا نقر على كتفه رجلٌ كان يجلس إلى جانبه في نفس الصف، وكان الأجدر من بين الجميع أن يوصف ب "البوم" أو "الغراب" لشدة عبسه، وسأله الرجل:

-ما سبب الزيارة؟

وتردد فارس قليلًا وفكر "ماذا أقول؟" ثم أفصح:

-أمممم...زيارة روتينية.

وقالها بتردد فتبين للبوم كذبه، ولكنه أومأ برأسه من غير أن يقول "بالسلامة أو عليك العافيه" وهمس الرجل:

-رسالة دمرت حياتي بأكملها...

فقاطعه صوت موظفة تقدمت إلى الباب:

-الاستاذ فارس الغبار.

ووقف فارس ومازال خاطره معلقًا بكلمة "رسالة!"، ومشى في الممر المفضي إلى غرفة المعاينة وهو مقطبًا حاجبيه حاكمًا على جبينه، ودوى صوت الرجل في دماغه وهو يقول "رسالة" ثم جلس فارس، وجال نظره في المكان.

فراش للمعاينة وطاولة كبيرة تفصل المريض عن الطبيب ولوحات طويلة بيضاء فيها معلومات طبية وصور تشريحية، وبوسترات ملونة غريبة.

تدحرج الحكيم، ووقف فارس وانحنى وصافحه، ثم أشار الحكيم له بالجلوس:

-فارس الحطاب؟

-فارس الغبار.

-ههه...اي كلو نفس بعضه.

وتساءل فارس "ما خطبه؟" ولكنه التزم بالصمت فلا يعكر مزاجه.

-اي فارس، وين البخش؟

-وين البخش!!

-ههه...بقصد وين العطل؟

-عطل شو؟

-عطلك أنتَ...لكن أنا يلي جاية عند الحكيم...هههه

وأراد فارس أن يجيب "لا أنا يلي جاية...بس عمحل فلافل...مو عيادة"

وتابع فارس:

-ألم بصدري دكتور...مدري كيف...حاسس حالي مخنوق.

-اي عال...منعملك شعاع موجات فوق صوتية للقلب، قوم اتسطح على الفرشة.

وخلع فارس المعطف والقميص والفانيلا وتمدد إلى الفراش، وجلس الحكيم، وكان يعدل نظارته بين الحين والآخر، بينما يمرر الجهاز المرسل للموجات على صدر فارس، واختفت في لحظة تلك الهيئة الخفيفة اللطيفة عليه، وتبدلت بأخرى مخيفة مُقلقة، فارتاب فارس على نفسه وسأل:

-ما الأمر؟

ولكنه التزم الصمت، واستمر بتحريك الجهاز على صدر فارس بينما ينظر بدقة إلى الشاشة السوداء البيضاء، وفي لحظة أعاد الجهاز إلى مكانه، ورفع النظارة ومسّد عينيه، تساءل فارس برعب:

-دكتور...طمني...في شيء.

مرت ثوانٍ طويلة قبل أن يلفظ الحكيم:

-معك تشوّه خلقي...الصمام بين القلب الأيمن والأيسر مفتوح...

تأتأ فارس:

-...ما فه...مت...شش شش شو يعني؟

-يعني حالتك صعبة والله.

صار كلام الدكتور يتردد في الأرجاء، شعر فارس بالأرض كأنما تهتز أو تتحرك، سقطت من عينيه دمعة فمسحها على خده. ابتلع ريقه، جلس الدكتور قبالته، كان يكتب تقرير أو تحويل، لم ينتبه فارس فقد شغله الخبر. كان فارس يرمي نظره في الأرض، يلاحق بعض الخطوط السوداء المرسومة على البلاط الأبيض، حتى ضرب بصره مشجب أسود، رفع فارس بصره وهو يسترجع صوت الدكتور "حالتك صعبة" كانت عيني فارس معلقتين على قبعة سوداء غريبة، وكان تفكيره يسرح في الحظ التعيس الذي تحلق به، "تشوّه خلقي!!" وتساءل في نفسه "أعلم الآن؟!!"

حوّل فارس عينيه مجددًا إلى الحكيم، شعر بغريزة في داخله، صوت مألوف، شيء رآه...مشهد مرّ عليه، ودون اي أمر، ارتدت عيني فارس مجددًا إلى القبعة السوداء..."قبعة سوداء؟! ألم أرى شبهًا بها سابقًا...ساعي البريد!!!"

انفجرت عيني فارس، تلك القبعة ذاتها!!، تلك هي القبعة التي كان يرتديها ابن المعتوهة، صارت أنفاسه مسموعة، جأر فارس في الدكتور "هل من المعقول؟!"

وأراد أن ينهال على الحكيم بضربات حتى لا يفلت منه إلا مقتولًا أو معطوبًا على أقل تقدير، وفكر في شتى الطرق والمحاولات، وكان كالنمر ينتظر الحين المناسب بينما دماؤه تغلي في شراييه، وفكر في الحيلة الأنسب، وكثيرًا ما كان يطيل النظر في الحكيم ويهمس وهو يميل رأسه أو يغمض عين "يا ابن الشرمو...والله لخليك تتيتم"

قرر بعد التفكير أن يتريث، "لا عجلة في نهايته، سوف ألقي به في آخر جهنم" مد الحكيم يده، وأمرر له ورقة تبينها فارس ورقة تحويل إلى مشفى، تناول فارس الورقة من الحكيم، وعصرها بيده حتى كادت أن تتلاشى، فقال الحكيم:

-ماذا تفعل، تحتاجها في المشفى.

ازدرد فارس ريقه، وكاد أن يخرج عن صوابه، وينقض فوق الطاولة محطمًا كل شيء، فقط ليقبض بيده على قميص الدكتور، وتمالك نفسه في آخر دقيقة، وقبل أن يخرج، وقف فارس في منتصف الغرفة، وعلق بصره في القبعة، ثم رمى بصره إلى الحكيم وجأر في عينيه، فقال الحكيم وهو يحك رأسه:

-كنت مهووسًا بها في صغري.

وضحك، فأومأ فارس على مضض، وقال:

-لكل حكيم هوس أو موهبة في أمر آخر لا يخص الطب.

-ههه...صحيح.

وخرج فارس من المستوصف، وهو يفكر، فكر في البريد الأسود، وفي التاريخ المكتوب عليه، وفكر في ساعي البريد، وقارن ساعي البريد وصوته بالحكيم وصوته، وقال "خالني في دخوله نفس الهيئة والصوت"

وكان فارس يقطع الشارع بينما أفكار عديدة تأخذه وتجيبه، حتى أخرج الورقة، وقرأ تحويل إلى...وتذكر صورة العصفور المحبوس في القفس، وفي لحظة، كانت سيارة تسير بسرعة عالية جدًا، ارتطمت السيارة بفارس، وقفزت به أمتار، وصارت دماء فارس فريسة للأرض لتمتصها، وارتمى فارس كالعصفور المذبوح على أرض الشارع، تزينه ابتسامة ارتسمت على وجهه، ابتسامة كنهها "لا يعلم الغيب إلا الله" ثم مات.

...

تمت بعون الله

اكتب لي رأيك في القصة في التعليقات (المراجعات الخاصة بالمكتبة) أو اكتب لي شخصيًا :) سوف أكون مسرورًا جدًا

أجب على أي سؤال من الأسئلة أو على جميعها في التعليقات

ما هي العبرة التي استخلصتها من القصة؟

كيف يمكن تطبيقها في المستقبل؟

هل لامستك شخصية من شخصيات القصة؟

الأهم من كل ما سبق. هل أعجبتك القصة واستمتعت بها؟

حسابي على الانستغرام 🟣

حسابي على الفيسبوك 🔵